دار الحديث العراقية

جزء عم

تفسير سورة

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ

الشيخ الدكتور
ماهر بن ياسين الفحل
غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

الحمدُ لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين اللهمَّ إنَّا نسألك رحمتك فهي خيرٌ مما يجمعون .

أمَّا بعد :

موعدُنا اليوم مع تفسير سورة الطارق هكذا سمّاها البخاري في صحيحه ، وكذا جاءت التسمية في المصاحب وغالب كتب التفسير ، ومنهم من سمّاها بأول آية منها ((**وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ**)) ويشهد لهذا ما جاء في جامع الترمذي من حديث جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ ((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقْرَأُ فِي الظُّهْرِ وَالعَصْرِ بِالسَّمَاءِ ذَاتِ البُرُوجِ ، وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ، وَشِبْهِهِمَا)) .

ومما جاء مما يدل على فضلها قال النسائي : حدثنا عمرو بن منصور ، قال : حدثنا أبو نعيم، عن مِسْعَر ، عن محارب بن دِثَار ، عن جابر قال : صلى معاذ المغرب ، فقرأ البقرة والنساء ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أفتان يا معاذ ؟ ما كان يكفيك أن تقرأ بالسماء والطارق ، والشمس وضحاها ، ونحو هذا ؟ " .

وهي مكيةٌ موضوعها عن الخلق والآيات الربانية والبعث ووعيد الكافرين كما هو غالب أمر القرآن المكي . نزلت بعد سورة البلد عددُ آياتها : سبع عشرة آية .
وعددُ كلماتها : إحدى وستون كلمة ، وعدد حروفها : مائتان وتسعة وثلاثون حرفاً .
أما مقصودها فقد قال البقاعي : ((مقصودها بيان مجد القرآن في صدقه في الإخبار بتنعيم أهل الإيمان ، وتعذيب أهل الكفران ، في يوم القيامة حين تُبلى السرائر وتُكشف المخبآتُ الضمائرُ عن مثقال الذر وما دون المثقال ، مما دوّنته الحفظة الكرام في صحائف الأعمال ، بعد استيفاء الآجال ، كما قُدّر في أزل الآزال ، من غير استعجال ، ولا تأخير عن الوقت المضروب ولا إهمال)) .

أمَّا مناسبتُها مع ما قبلها فهو كما قال البقاعي : ((لما تقدّم في آخر البروج أنَّ القرآن في لوح محفوظ ؛ لأنَّ مُنزلَهُ محيطٌ بالجنود من المعاندين وبكل شيء ، أخبر أنَّ من إحاطته حفظَ كلِّ فرد من جميع الخلائق المخالفين والموافقين المؤالفين ، ليجازى على أعماله يومَ إحقاق الحقائق وقطع العلائق)) .

وقال المراغي : مناسبتها لما قبلها :

(١) أنه ابتدأ هذه بالحلف بالسماء كالسورة قبلَها .

(٢) أنه ذكر في السابقة تكذيبَ الكفار للقرآن ، وهنا وصف القرآن بأنَّه القول الفصل ، وفيه ردٌ على أولئك المكذبين .

وقال أبو جعفر ابن الزبير رحمه الله تعالى : ((لما قال الله سبحانه وتعالى في سورة البروج ((**والله على كل شيء شهيد**)) و((**والله من ورائهم محيط**)) وكان في ذلك تعريفُ العباد بأنَّه سبحانه وتعالى لا يغيب عنه شيءٌ ولا يفوتُه شيءٌ ولا ينجو منه هاربٌ ، أردف ذلك بتفصيلٍ يزيد إيضاح ذلك التعريف الجُملي من شهادته سبحانه وتعالى على كل شيء وإحاطته به ، فقال تعالى : ((**إن كل نفس لما عليها حافظ**)) فأعلم الله سبحانه وتعالى بخصوص كل نفس ممنْ يحفظ أنفاسها ((**ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد**)) ليعلم العبد أنَّه ليس بمهمَل ولا مُضيَّع ، وهو سبحانه وتعالى الغنيُّ عن كُتُبِ الحفظة وإحصائِهم وشهادةِ الشهود من الأعضاء وغيرِهم ، وإنَّما كان ذلك لإظهار عدله سبحانه وتعالى : ((**إن الله لا يظلم مثقال ذرة**)) ولا أقلَ من المثقال ، ولكنْ هي سنتُهُ حتى لا يبقى لأحد حجةٌ ولا تعلقٌ، وأقسم سبحانه وتعالى على ذلك تحقيقاً وتأكيداً يناسب القصد المذكور)) انتهى .

وقوله تعالى : ((**وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ**)) الواو للقسم ، فهذا قسمٌ من الله بالسماء وبالطارق وربُنا تعالى أكثرَ في كتابه من ذكر السماء والشمس والقمر ؛ لأنَّ أحوالها في أشكالها وسيرِها ومطالِعها ومغارِبها عجيبةٌ تُذهلُ الألباب ، وتذكرُ بعظمةِ الله العلي الوهاب .

وهنا قسمٌ بالسماء ، وهو آكدُ من الذكر فقط ، ففيها عجائبُ وغرائبُ ودلائلُ لمن يتدبرُ ويتفكرُ بأنَّ لها خالقاً مُدّبراً سميعاً بصيراً قوياً ، يقوم بشؤونها ويُحصي أمرَها ، لا يُشركِه سواه في هذا الإبداع والصُنع ((**يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ**)) والسماءُ تُفيضُ بماء الحياة ، والنظرُ إليها عبادةٌ ، وقد ذكر العلماء فوائد للنظر إلى السماء فمنها :

١- التفكرُ والتدبرُ والاعتبار بعظمةِ الخالق المبدع في هذه السماء العظيمةِ الأرجاءِ التي ليس فيها صدوعٌ ولا شقوقٌ ، بل هي سبعٌ شداد ، وفيها منظر الجمال والجلال.

٢- إظهارُ الذل والافتقار للعلي القهار حتى ولو لم ينطق بالدعاء .

٣- إحسانُ الظن بالله ، وكأنَّ الإنسانَ يرقبُ نزولَ الخير ، ويتحينُه كما حصل لهاجر لما صعدتِ الصفا والمروة .

٤- إفرادُ الله بالأُلوهية والربوبية ؛ فمدبرُ الكونِ ورافعُ السماء بغير عمدٍ ترونها لا يمكن أنْ يكون إلا واحداً .

٥- زيادةُ الإيمانِ بقراءةِ الكتابِ المنظورِ مع تأملِ الحكمة في الاتقان والإحكام وعظمة الصُنع .

٦- معرفةُ الإنسانِ نفسَه ومعرفةُ ربِه ؛ فيتعرفُ الإنسانُ أنَّه مخلوقٌ صغيرٌ أمامَ السماء العظيمةِ الأرجاء ، وأنَّ اللهَ كبيرٌ ، بل هو أكبر من كل كبير .

٧- الخوفُ من الله ، ومنْ سطوته فهو القويُّ الذي لا يفوته أحد ، فبالنظر إلى السماء يدركُ المرءُ عظمةَ الخالق .

٨- التوكلُ على الله وحسنُ اعتماد القلب على الله ؛ فمدبرُ السماء وممسِكُها أنْ تقع على الأرض حفيظٌ لكل شيء .

٩- الإيمانُ بجمال الله وجلاله ؛ فكلُّ جمالٍ فهو أثرٌ من جماله ، وكلُ إنعام ينزل من السماء فهو أثرُ رحمته .

١٠- عظمةُ الخالق وأنَّ المخلوق دونه .

وقد عظّم قدْر السماء في أعين الخلق لما جعلها معدنَ رزقِهم ومسكنَ أولي القَدر من خلقه ، وهم الملائكة ، وفيها مصاعدُ العمل الصالح ، وخلقُها بغير عَمَدٍ تُرى . فأقسم بها لما عظّم من شأنها ، وجعل مصالح الأغذية بزينتها ، وهي الشمسُ والقمرُ والكواكبُ والمطر ونزول الوحي . ثم أقسم بالطارق ، والطارقُ في الأصلِ اسمُ فاعلٍ منْ طرقَ طَرْقاً وطروقاً إذَا جاءَ ليلاً قالَ المَاوَرْدِيُّ : ((وأصلُ الطرقِ الدقُّ ، ومنه سُميتِ المطرقةُ ، وإنَّما سُميَ قاصدُ الليلِ طارقاً لاحتياجِه إلى طرقِ البابِ غالباً)) ثم اتُّسعَ في كلِّ ما ظهرَ بالليلِ كائناً ما كانَ ، ثم أُشبعَ في التوسعِ حتى أُطلقَ على الصورِ الخياليةِ الباديةِ بالليلِ .

ويُلحظ هنا أنَّ القسم جاء متعدداً : ((**وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ**)) والتعددُ في القسم يجيء كثيراً كما في قوله : ((**وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا**)) وقولِه تعالى : ((**وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى**)) وقولِه : ((**وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ**)) ، وقد يكونُ القسمُ مُفرداً كما في قوله تعالى : ((**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى**)) وتَعددُ القسم في القرآن فيه إشارةٌ إلى تعددِ الخلق ووحدانيةِ الخالق وكمالِهِ وجلالِهِ

وفي سورة الطارق لما جاء القسم : ((**وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ**)) فيه إشارةٌ إلى عِظم السماءِ وعِظمِ ما فيها منْ عوالمَ ومخلوقاتٍ تدلُ على القدرة الإلهية والإحكام للخلق .

ثم أقسم ربنا بالطارق الذي يطرق ليلاً من النجوم المضيئة ، ويخفى نهاراً ، وكلُّ ما جاء ليلاً فقد طرق .

ثم قال تعالى : ((**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ**)) يقولُ تعالى ذكرُهُ لنبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم : وما أشعركَ يا محمدُ ، ما الطارقُ الذي أقسمتُ به ؟ ثُمَّ بيّن ذلك جلّ ثناؤه ، فقال : النجمُ الثاقب ، يعني : يتوقد ضياؤه ويتوهّج .

وقوله : ((**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ**)) هذا سؤالُ تفخيمٍ وتعظيمٍ وتشويق للمعرفة ودعوةٍ إلى النظرِ والتطلعِ والبحث إلى معرفة هذا الطارق ، وحفاوةٍ واهتمامٍ بتفخيمِ أمره ؛ ليكونَ الذهنُ متحفزاً لتلقي الجواب .

وارتفاعُ قولِهِ : ((**النجمُ الثاقبُ**)) على أنَّه خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ ، والجملةُ مستأنِفةٌ جوابَ سؤالٍ مقدّرٍ نَشأ مما قبله ، كأنَّه قيل : ما هو ؟ فقيل : هو النجمُ الثاقب .

والنجمُ الثاقبُ اسمُ جنسٍ يَشملُ سائرَ النجوم الثواقب ، والثاقبُ المضيءُ لثقبِهِ الظلام بضوئِهِ فينفذُ فيه ، وهو المتلألئُ منَ النجوم ، والمضيءُ الذي يثقبُ الشيطانَ ، أو يحرِقهم ، ولما فيها أيضاً من فوائد للخلق بتلكم الإضاءة ، وأنَّها جُعلتْ بحيث يُهتدى بها في البر والبحر ، فقد أقسم بالنجم الثاقب تعظيماً له ، لما عُرِفَ فيه من عجيبِ القُدرة ولطيفِ الحكمة .

وتأمل أخي عند القراءة : ((**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ**)) كيفَ أنَّ الله عظّم منْ شأن الطارق ، ثم أعلمَ نبيَّه صلى الله عليه وسلم به للفت الانتباه .

وقد جاءت عبارة : ((**وما أدراك**)) ثلاثَ عشرةَ مرةَ في كتاب الله ، كلُها أخبرهُ بها إلاَّ واحدةً، وهي في سورة الحاقة ((**وما أَدْرَاكَ ما الْحَاقَّةُ**)) وما عداها ، فقد أخبره بها ، وهي في سورة المدثر : ((**وما أَدْرَاكَ ما سَقَرُ لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ**)) .
وفي سورة المرسلات ((**وما أَدْرَاكَ ما يَوْمُ الْفَصْلِ**)) ثم جاء الجواب : ((**هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ**)).
وفي سورة الانفطار : ((**وما أَدْرَاكَ ما يَوْمُ الدِّين ثُمَّ ما أَدْرَاكَ ما يَوْمُ الدّين يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا**)) .
وفي سورة ويل للمطففين : ((**وما أَدْرَاكَ ما سِجِّينٌ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ**)) .
وفي سورة البلد : ((**وما أَدْرَاكَ ما الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ**)) .
وفي سورة القدْر : ((**وما أَدْرَاكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ**)) .
وفي سورة القارعة : ((**وما أَدْرَاكَ ما الْقَارِعَةُ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ**)) .

وأيضاً : ((**فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وما أَدْرَاكَ ما هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ**)) ، وفي هذه السورة ((**وما أَدْرَاكَ ما الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ**)) ، فكلُها أخبره عنها إلاَّ في الحاقة .

وكلها في قصار السور من الحاقة وما بعدها ، أمَّا : (ما يدريك) ، فقد جاءت ثلاث مرات فقط ((**وما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً**)) ، في سورة الأحزاب ((**وما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ**)) في سورة الشورى ((**وما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى**)) في سورة عبس لم يخبره فيها صراحة ، إلاَّ أنَّه قال ((**لَعَلَّهُ يَزَّكَّى**)) فهو وإن لم يصرَّح هل هو تزكى أم لا ، إلاَّ أنَّ لعل من الله تعالى للتحقيق ، كما هو معلوم . والمسلم الذي يقرأ القرآن ينبغي أن تكون له دُربةٌ ومعرفة بأساليب القرآن .

ثم جاء جواب القسم فقال تعالى : ((**إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظ**)) .

أي : ما كل نفس إلّا عليها حافظ ، أي : حارس أمين ، ضابط لكل ما تعمل النفس من خير أو شر من ظاهر أو خفي كما قال تعالى : ((**سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَال**))، ويشمل معنى الآية أنَّ كلَّ نفس يقوم عليها من كيانها ما يحفظ عليها وجودَها ، وذلك بما أودع الخالق جل وعلا فيها من قوى مادية ومعنوية ، تجعل منها جميعاً أسلحة عاملة ، تحمى الإنسان ، وتدفع عنه ما يعترض طريقه في مسيرة الحياة في رحلة الاختبار وهو جهاز المناعة وهو عبارة عن منظومة عسكرية متطورة وهذه المنظومة تملك أسطولاً من كريات الدم البيضاء التي لا تتردد بمهاجمة أيّ جسم ضار يغزو بدن الإنسان ، ويبدأ عمل هذا الجهاز عندما تقوم غدة من غدده تسمى الغدة الثايموسية ثايمو جلاند هذه الغدة تقوم بتدريب هؤلاء الجنود عملياً وتعتبر مثل الكلية العسكرية كلية عسكرية لكريات الدم البيضاء تدربها و نوع التدريب تدربها على التفريق بين الأجسام الصديقة والأجسام غير الصديقة التي تكون في بدن الإنسان ثم تقوم بعملية اختبار لها، فتعرض عليها أجسام ؛ لترى ماذا تصنع فتقوم الغدة بعرض أجسام صديقة على كريات الدم

البيضاء التي تحت التدريب فإن لم تهاجمها ونجحت في الاختبار أطلقتها ؛ لتبدأ دوريتها وتبدأ تمارس عملها في جسمك وإن لم تستطع هذه الكرية البيضاء التفريق بين الجسم الصديق والجسم العدو تقتل هذه الكرة الراسبة لأنه لا فائدة منها ، وهكذا فالحافظ في جسد الإنسان مستمر العمل ، ومنَ الحافظ حافظٌ يحفظ الإنسان وهو عقله ، الذي يميز به الخير من الشر ، والخبيث من الطيب ، وقد جاءتِ النصوص بعد هذه الآية بدعوة الإنسان إلى أن يستعمل عقله ، وينظر فى أصل خلقه ، ومادة وجوده . وهو قوله تعالى : ((**فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرائِبِ**)) أي : وإذ كان مع كل إنسان حافظ ، هو عقله ، فلينظر بهذا العقل الحافظ ، إلى قدرة الله سبحانه وتعالى ، فى ذاته هو ، وإلى قدرة الله سبحانه في العالم الذي حوله . والعقلُ يُرشدُ الإنسانَ إلى مصالحه ، ويكفّه عن مضارّه .

والحافظ : هو الذي يحفظُ أمراً ولا يهمله ؛ ليترتب عليه غرضٌ مقصود .

والحافظ في الحقيقة : هو الله جل علاه ، كما بيّن القرآن الكريم ((فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين)) وهو حافظ السماوات والأرضين وما فيهن ((ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم)). فهو المهيمن الرقيب ، وهو الله تعالى ((**وكان الله على كل شيء رقيباً**)) وقال تعالى : ((**وكان الله على كل شيء مقيتاً**)) .

وكذلك إنَّهم الحفظة من الملائكة ، قاله ابن عباس . قال قتادة : يحفظون على الإنسان عملَه من خير أو شر . قال قتادةُ : ((حافظ)) أي : حفظة يحفظون عليك رزقك وعملك وأجلك، قال تعالى : ((**وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً**)) ، وقال تعالى : ((**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَاماً كَاتِبِينَ**))، وقال تعالى : ((**لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ**)) .

فحافظ ، أي : رقيب عتيد لا يفارقها ، والمراد به الجنس من الملائكة ، فبعضهم لحفظها من الآفات ، وبعضهم لحفظها من الوساوس ، وبعضهم لحفظ أعمالها وإحصائها بالكتابة ، وبعضهم لحفظ ما كتب لها من رزق وأجل وشقاوة أو سعادة ومشي وسفر وإقامة .

قال القرطبي : العقل وغيره وسائط ، والحافظ في الحقيقة هو الله تعالى ، قال الله تعالى : ((**فالله خَيْرٌ حَافِظاً**)) ، وقال تعالى : ((**قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بالليل والنهار مِنَ الرحمان**)) وما كان مثله .

قال ابن الخطيب : المعنى : لما كانت كل نفس عليها حافظ ، وجب أن يجتهد كل واحد ، ويشتغل بالمهم ، وأهم الأشياء معرفة المبدأ والمعاد والمبدأ يقدم .

قال ابن عطية هذه الآية فيما قال قتادة وابن سيرين وغيرهما : إنَّ كلَّ نفسٍ مكلفةٍ فعليها حافظٌ يحُصي أعمالها ويعدُّها للجزاء عليها ، وبهذا الوجه تدخل الآية في الوعيد الزاجر .

فالحافظ من الله عز وجل يحفظها ، حتى يُسلمها إلى المقادير .

وقوله تعالى : ((**حافظ**)) يشمل معنى حافظ يحفظ عليها رزقها حتى تستوفي به ، فالحفظ يكون لها ولما كان لها فعليها ، ويشمل يحفظُ عليها أعمالَها خيرَها وشرَها .

ولما ذكر سبحانه فيما قبلها ، وهي سورة البروج تكذيبَ الكفار للقرآن نبّه سبحانه وتعالى هنا على أصل الإنسان ، ثم استطرد جل وعلا منه إلى وصف القرآن ثم أمر سبحانه نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم بإمهال أولئك المكذبين فقال تعالى : ((**فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِق**)) وهي آيةٌ عظيمةٌ تأمر الإنسانَ بالنظر إلى ضعفه الفطري بالنظر إلى أصله . والأمر يفيد الوجوب ، فوجب على الإنسان أنْ يتفكر بأصله ، ووجب على الأطباء وغيرهم ممن أوتي علم الأبدان أنْ يُبصّروا النَّاس في عظمة الخالق من خلال النظر في إبداع خلق الإنسان .

ووجهُ اتصال الآية بما قبلها توصيةُ الإنسان بالنظر في أول أمره ، حتى يعلم أنَّ من أنشأه قادرٌ على إعادته وجزائه ، فيعمل ليوم الإعادة والجزاء ، ولا يُملي على حافظه إلا ما يسرّه في عاقبة أمره . و ((**مم خلق**)) استفهامٌ ، أي : من أي شيء خلق ؟

ففي قوله : ((**فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ**)) تنبيهٌ للإنسان على ضعف أصله الذي خُلق منه كي لا يتكبر ، وإرشادٌ له إلى الاعتراف بالمعاد ؛ لأنَّ من قدر على البَدَاءة فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى ، كما قال : ((**وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ**)) .

والنظرُ في قوله : ((**فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ**)) : نظرُ العقل ، ونظرُ البحث والعلم .

ثم بيّن جل ثناؤه خلق الإنسان فقال سبحانه وتعالى : ((**خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ**)) أي : مدفوق مصبوب في الرحم ، وهو المنيُّ أي : مني الرجل ، وهو فاعل بمعنى مفعول كقولهم : سرٌّ كاتم ، وليلٌ نائم ، وهمٌّ ناصب ، وعِيشةٌ راضيةٌ ، قال الفرّاء : أعان على ذلك أنها رؤوس الآيات التي معّهن .

وقال ابن عطية : ((يَصِحُّ أَنْ يَكونَ الماءُ دافقاً ؛ لأنَّ بعضَه يَدْفُقُ بعضاً ، أي : يدفعه فمنه دافِق، ومنه مَدْفوق)) انتهى كلامه رحمه الله . والدَّفْقُ : الصَّبُّ ففِعْلُه متعدٍّ .

وإنَّما لم يقل من ماءين لاختلاطهما في الرحم واتحادهما عند ابتداء خلق الجنين .

وقد تكرر في كتاب الله بيان أصل خلق الإنسان حتى لا يتكبر الإنسان ، ومن ذلك قوله تعالى: ((**إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُون**)) أي : من الشيء الذي يعلمون أنَّه شيءٌ مَهينٌ كما قال تعالى : ((**ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ**)) فأصلُ خِلقةِ الإنسان لا تؤهله للاستكبار والكفران .

ثم قال تعالى : ((**يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِب**)) .

قال الزجاج : قال أهل اللغة أجمعون : التربة ، موضع القلادة من الصدر ، والجمع : ترائب .
وقال أبو عبيدة : الترائبُ معلقُ الحليّ من الصدر ، وهو قول جميع أهل اللغة ، وقال عطاء

عن ابن عباس رضي الله عنه : يريد صلب الرجل وترائب المرأة . وهو موضع قلادتها ، فالحيوان ينعقد من ماء الذكر وماء الأنثى ، كما ينعقد النبات من الماء والتراب والهواء . ولهذا قال الله تعالى : ((**بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة**)) فإنَّ الولد لا يكون إلا من بين الذكر وصاحبته .

وليس المقصود بالصلب والترائب خروجه الآني والفوري ؛ إذا الصلب يشمل عظام الظهر إلى عظام العجز ، وكذلك الترائب فهي عظام الصدر وموضع القلائدة ، وكذلك عظام الأضلاع والعظام التي في أسفل البطن والمثانة وغيرها فهي داخلة في عظام الترائب ، وهذا وارد عن السلف كما قال الضحاك : إنَّ الترائب هي عظام الرأس واليدين والرجلين .فعلى هذا يكون المعنى : يخرج من ملتقى عظام الظهر وعظام الترائب ، أي من ملتقى العجز والصدر وهو موضع الجماع ، والحيوانات المنوية لدى الرجل والبُييضة لدى المرأة تُسقى موادُ تكوينها من بين الصلب والترائب كما أنَّ منشأها ومبدأها هو من بين الصلب والترائب ، وتأمل العبارة في الآية القرآنية : ((من بين الصلب والترائب)) ولم تكن من الصلب والترائب ؛ لتدرك عظمة القرآن وإعجازه .

ولما ذكر الله إبداع الخلق ذكر إعادة الخلق فقال تعالى : ((**إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ**)) .

أي : إنَّ الله على ردّ الإنسان المخلوق من ماء دافق من بعد مماته حيّاً ، كهيئته قبل مماته لقادر.

فقوله عز وجل : ((**إِنَّهُ على رَجْعِهِ لَقَادِرٌ**)) ((إِنَّهُ)) الضميرُ للخالقِ تعالَى فإنَّ قولَه خُلِقَ يدلُّ عليهِ، وهو معلومٌ في الأذهان ، أيْ : إنَّ ذلكَ الذي خلقَهُ ابتداءً مما ذكرَ ((على رَجْعِهِ)) أي : على إعادتِه بعد موتِه ((لَقَادِرٌ)) أي : لبينُ القدرة ، فربنا على رد الإنسان بعد الموت لقادر ، وهو على كل شيء قدير .

فمن قدر على تصوير الولد في تلك الظلمات كما قال تعالى : ((**هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**)) وفي الأماكن الضيقة في الظلمات الثلاث، وقدرَ أنْ يجعل في الماء والطعام المعاني التي يعجز الخلق عن إدراكها قادرٌ على إنشاء الخلق لا من شيء ؛ إذ الأعجوبة في ما ذكرنا ، ليست بدون الأعجوبة من إنشاء شيء لا من شيء .

ثم بيّن سبحانه وتعالى وقتَ رجع الإنسان مُعلِماً بخطورة الحساب فقال : ((**يوم تبلى السرائر**)) .

والمرادُ بها أمانةُ التكليفِ فيما لا يعلمه إلاَّ الله ، ويَدخلُ في ذلك الطهارة للصلاة ، وغسلُ الجنابة ، وحفظُ الصوم ، ونحو ذلك . ومنها العقائدُ وصدقُ الإيمان أو النفاق ، عياذاً بالله . و((**يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ**)) أي : تختبر سرائر الصدور ، ويظهر ما كان في القلوب من خير وشر على صفحات الوجوه قال تعالى : ((**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ**)) وقال تعالى : ((**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ**)) ففي الدنيا ، تنكتم كثيرٌ من الأمور ، ولا تظهرُ عَيانًا للناس ، وأمَّا في القيامة ، فيظهرُ برُ الأبرار ، وفجورُ الفجار ، وتصيرُ الأمور علانيةً والحقائقُ مكشوفةً .

قال عبد الله بن عمر : يُبديء اللهُ تعالى يوم القيامة كلَّ سرٍّ ، فيكون زَيناً في وجوهٍ وشيناً في وجوه ، يعني : من أدى الفرائض كما أُمر كان وجهُهُ مشرقاً ، مُستنيراً يومَ القيامة ، ومنْ ضيّعها أو انتقصَ منها كان وجهُهُ أغبرَ .

قال ابن العربي : قال مالك : في رواية أشهب عنه وسَأله عن قوله تعالى : ((**يوم تبلى السرائر**)) أبَلغَك أنَّ الوضوءَ من السرائر ؟ قال : قد بلغني ذلك فيما يقول النَّاس ، فأمَّا حديثٌ أخذتُهُ فلا . والصلاةُ من السرائر والصيامُ من السرائر ، إن شاء قال : صليتُ ولم يصل . ومن السرائر ما في القلوب يجزي الله به العباد .

(يَوْمَ تُبْلى السّرَائِرُ) يوم تُخْتَبرُ سرائرُ العباد ، فيظهر منها يومئذٍ ما كان في الدنيا مستخفياً عن أعين العباد ، من الفرائض التي كان الله ألزمه إياها ، وكلّفه العمل بها .

((**يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ**)) أي : تكشف ضمائر القلوب في النيّات ومستورات الأفعال ، وهي جمعُ سريرة بمعنى مسرورة ، وكأنَّ الإنسانَ يُسرُ بمسروراته وخواطره ، وكشفُها أظهارُ الحسنِ والقبيحِ لصاحبه والتمييزُ بينهما ؛ ليحاسب على مثاقيل الذر .

و((**تبلى**)) تختبر وتكشف ((**السرائر**)) أي : ما أسرّ في القلوب من العقائد والنيّات وغيرهما وما أخفى الأعمال ، وذلك يوم القيامة ، وبلاؤها تعّرفُها وتصفُحها والتمييزُ بين ما طاب منها وما خبُث . وعن الحسن البصري أنَّه سمع رجلاً ينشد :

سيبقى لها في مضمر القلب والحشا *** سريرة ودّ يوم تبلى السرائر

فقال : ما أغفله عما في (والسماء والطارق) .

((**يوم تبلى السرائر**)) : أي يكشف عن النيّات التي بها تعبّدهم الله فيما فرض عليهم ونهاهم عنه ، وأعمال العباد يوم القيامة موقوفة على مقاصدهم . ولقد كان الربيع يقول : السرائر التي تخفى على الناس ، وهي لله بوادٍ ، التمسوا دواءهن . ثم يقول : وما دواؤهن ؟ هو أنْ يتوب ثم لا يعود . حتى قال سهل : آلة الفقير ثلاثة أشياء : أداء فرضه وصيانة فقره وحفظ سرّه .

وفي الآية أنَّ الله يفضحُ العاصي بما كان يسرُّ من معاصيه ، وفيها أنَّه يظهر سرُّ كلِ إنسان ، ويبدو أثرُهُ على وجهه .

وما أحسن قول ابن كثير عند الآية الخامسة والثلاثين بعد المئتين من سورة البقرة في تفسيره النفيس إذا قال : ((وَقَوْلُهُ : ((**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ**)) تَوَعَّدَهُمْ عَلَى مَا

يَقَعُ فِي ضَمَائِرِهِمْ مِنْ أُمُورِ النِّسَاءِ ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى إِضْمَارِ الْخَيْرِ دُونَ الشَّرِّ ، ثُمَّ لَمْ يُؤْيِسْهُم من رَحِمَتْهُ ، وَلَمْ يُقْنطهم مِنْ عَائِدَتِهِ ، فَقَالَ : ((**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ**)) .

ثم بيّن تعالى أنْ لا نجاة إلا بالعمل فقال : ((**فما له من قوة ولا ناصر**)) .

أي : إلا ما قدّمه أمامَه من عملٍ صالحٍ ، والقوّة في الآية المقصود بها القوة من النفس ، وأمَّا الناصر فمن خارجها كما قال تعالى : ((**وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا**)) .

ثم جاءَ القسمُ الآخرُ في هذه السورة ؛ ليعلم المرء أنَّ النجاة في الدنيا والآخرة بالاعتصام بالقرآن فقال تعالى ((**وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الرَّجْعِ**)) فهو قسم بالسماء ، وما قيل في الآية الأولى يقال هنا ، وقد وصفها ربنا بوظيفة مهمة فقال : ((**ذَاتِ الرَّجْعِ**)) أي : ترجع بالغيث وأرزاق العباد كلّ عام، ولولا ذلك لهلكوا وهلكت معايشُهم ، والرجع المطر ، لأنَّه يجئُ ويرجعُ ويتكررُ. وأقسم بالأرض التي يَنبتُ فيها النباتُ الذي جعله الله رزقاً للعباد فقال : ((**والأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ**)) يصدع بالنبات والشجر ، والثمار ، والأنهار ، نظيرهُ قوله تعالى : ((**ثُمَّ شَقَقْنَا الأرض شَقّاً**)) . والسماءُ والأرضُ كلاهما من النعم العظام ؛ لأنَّ نعم الدنيا موقوفةٌ على ما ينزل من السماء متكرراً ، وعلى ما ينبت من الأرض كذلك ؛ فأكد أحقية القرآن الذي فيه هذه البيانات الشافية والمواعظ الوافية.

قال البقاعي عند قوله تعالى : ((وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ)) .

ولما ذكر الأمر العلوي بادئاً به لشرفه ، أتبعه السفلي فقال تعالى : ((والأرض)) أي : مسكنكم الذي أنتم مُلابسوه ومعانوه كلَّ وقتٍ ومُلامِسوه ((ذات الصدع)) أي : التي تتصدع وتنشق فيخرج منها النبات والعيون بدءاً وإعادةً ، وفيه دلالة ظاهرة على البعث ، فجمع

بالقسم العالم العلوي الذي هو كالرجل والسفلي الذي هو كالمرأة ، فكما أنَّ الرجل يسقيها من مائه فتصدع عن الولد ، فكذلك السماء تُسقي الأرض فتتصدع- عن النبات ، وكما أنَّها تتصدع عن النبات- بعد فنائه وصيرورته رفاتاً ؛ فيعود كما كان فكذلك تتصدع عن النَّاس بعد فنائهم فيعودون كما كانوا بإذن ربها من غير فرق أصلاً)) .

ثم جاء جواب القسم : ((**إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ**)) .

((**إنَّه**)) أي : إنَّ القرآن الذي من جملته هذه الآيات المتلوّة في هذه السورة المشتملة على دلائل القدرة على البعث ((**لقول فصل**)) أي : فاصل بين الحق والباطل ، والهدى والضلال كما قيل له (فرقان) ، وقد بلغ الغاية في ذلك ؛ حتى كأنه نفسُ الفصل ، وهو جواب القسم، ومن تتمته وصفه بقوله تعالى : ((**وما هو بالهزل**)) .

فالقرآنُ قولٌ فصلٌ يَفصلُ بين الحق والباطل بالبيان عن كل واحد منهما .

((**وَمَا هوَ بالهزل**)) أي : ما هو باللعب والباطل يعني : إنَّه جدٌ كلُهُ ومنْ حقه ، وقد وصفه الله بذلك أنْ يكون مَهيباً في النفوس مُعظماً في القلوب ، يُرتفع به قارئه وسامعه أنْ يلمَّ بهزلٍ أو إثمٍ أو تقصيرٍ ؛ إذ حاملُ القرآن حاملُ راية الإسلام .
ولَيْسَ فِي الشَّرِيعَةِ هَزْلٌ ، وَإِنَّمَا هِيَ جَدٌّ كُلُّهَا ؛ فَلَا يَهْزِلُ أَحَدٌ بِعَقْدٍ أَوْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ إِلَّا وَيُنَفَّذُ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَجْعَلْ فِي قَوْلِهِ هَزْلًا ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْهَزْلَ مَحَلٌّ لِلْكَذِبِ .

والهَزْلُ : ضدُّ الجَدِّ والتشميرِ في الأمر ، ولذا ينبغي للمرء أن يكون مشمّراً جادّاً في أمور الآخرة .

ثم سلّى الله نبيَّه وحثّه على الصبر الجميل فقال ((**إنهم**)) يعنى كفار مكة ((**يكيدون كيداً**)) في إطفاء نور الحق والصد عن دين الله وذلك بإلقاء الشبهات والطعن في النبوّة والتشاور في قتل

النبي صلى الله عليه وسلم كقوله : ((**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**)) .

ثم قال : ((**وَأَكِيدُ كَيْدا**)) أي : وأمكرُ مكراً ، ومكرُهُ جلّ ثناؤه بهم : إملاؤُه إيّاهم على معصيّتهم وكفرِهم به واستدراجُهُ إيّاهُم وعدمُ استعاجلِهم بالعقوبة فلا يُعجّل بالعقوبة إلا من يخاف الفوت .

قال البقاعي : ((وسُمي جزاؤه لهم سبحانه كيّداً مشاكلةً ، ولأنَّه خَفيٌّ عنهم ومكروهٌ إليهم فهو على صورة الكيد فقال : ((**وأكيد**)) أي : أنا بإتمام اقتداري ((**كيداً**)) باستدراجي لهم إلى توغلّهم فيما يغضبني ؛ ليكمل ما يوجبُ أخذي لهم من حيث لا يشعرون)) .

ثم قال تعالى : ((فَمَهّلِ الْكافِرِينَ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : فمهّل يا محمد الكافرين ولا تعجلْ عليهم أمْهِلْهُمْ رُوَيْداً يقول : أمهلهم آناً قليلاً ، وأنظرهم للموعد الذي هو وقت حلول النقمة بهم)) .

((رُوَيْداً)) مصدرٌ مؤكّدٌ لمعنى العامل .

((**فَمَهّلِ الْكافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً**)) هو تهديدٌ للمشركين بما ينتظرهم من وراء كيدهم هذا ، وإنَّه ليس إلا أيامٌ قليلةٌ وأنفاسٌ معدودةٌ يقضونها فى دنياهم ، حتى يلقاهم اليوم الذي يوعدون ، وحيث يأخذهم عذابُ الله المحيط ، وليس لهم من دون الله من وليٍّ ولا نصير.
وفى هذا تصبيرٌ للنبى الكريم صلى الله عليه وسلم ، وتثبيتٌ لقدمه على طريق دعوته وتصبيرٌ لكل الدعاة من بعده ، والدعوة حيث كانت تقوم على طريقها الذئابُ المتربصةُ بها ففي ذلك تقويةٌ لفؤاده صلى الله عليه وسلم أنَّه فى حراسة الله ، فليمضِ فى طريقه ، وليدعُ الله سبحانه ردّ هذا الكيد الذي يكادُ له .

((**وَأَكِيدُ كَيْدًا**)) أي : لإظهارِ الحقِّ ولو كَرِهَ الكَافِرُون ، وَلِدَفْعِ ما جَاءُوا به من الباطلِ ، وَيُعْلَمُ بهذا مَنِ الغَالِبُ ؛ فَإِنَّ الآدَمِيَّ أضعفُ وَأَحْقَرُ من أن يُغَالِبَ القَوِيَّ الْعِلْيم القدير .

قال الشيخ الشنقيطي رحمة الله تعالى علينا وعليه في كتابه النافع الماتع (دفع إيهام الاضطراب) ما نصه : هذا الإمهال المذكور هنا ينافيه قوله تعالى : ((فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ)) .

والجواب : أنَّ الإمهال منسوخ بآيات السيف ا هـ .

وهذا ما يفيده كلام الطبري ، وإن لم يصرّح به ، وهو منصوصُ القرطبي . ولعل في نفس الآية ما يدل على ذلك وهو قوله : ((**أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً**)) لأنَّ رويداً بمعنى قليلاً ، فقد قيّد الإمهال بالقلة مما يشعر بمجيء النسخ ، وأنَّه ليس نهائياً ، والله تعالى أعلم .